حتى لا تتحول المبشِّرات إلى مثبِّطات

ثمة آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة تؤكد انتصار الإسلام، وتبشر بهيمنته وعلوه في أرجاء الأرض، وتوضح أن له الكلمة العليا، وأن الله تعالى متم نوره وناصر جنده ولو كره الكافرون، وكاد الكائدون..

من هذه الآيات الكريمات قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} (النور: 55).

وقوله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا} (الفتح: 28).

وقوله: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (المجادلة: 21).

ومن الأحاديث ما رواه أحمد في مسنده عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الدِّينُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلا يَتْرُكُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ؛ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزٌّ يُعِزُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الإِسْلامَ، أَوْ ذُلٌّ يُذِلُّ بِهِ الْكُفْرَ".

وما رواه مسلم في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اَللهَ زَوَى لِي اَلأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا؛ وَأُعْطِيتُ اَلْكَنْزَيْنِ اَلأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ".

ولا شك أن هذه الآيات والأحاديث تملأ المسلم ثقة في وعد الله تعالى، الذي لا يخلف وعده؛ وتجعله في يقين نفسي وطمأنينة لا زعزعة فيهما بأن الإسلام ظاهر على الدين كله، وغالب ما سواه من مذاهب وفلسفات.

هذا حق لا ريب فيه..

وهذه الثقة والطمأنينة واليقين- في الفهم الصحيح - يجب أن تدفع المسلم إلى العمل الحثيث لتحقيق انتصار الإسلام، ولجعل هذه المبشرات حقيقةً في أرض الواقع؛ يحياها الناس ويحيون بها، ويستظلون بظلالها.

إن هذه النصوص- وغيرها كثيرة - لم تَرِدْ دون حكمة، وليست العبرة منها المعرفة المجردة التي لا ينبني عليها عمل.. بل جاءت لتشحذ الهمم، ولتثبّت الإيمان واليقين في النفوس، ولتجعل أمام المسلمين أملاً لا ينقطع بقدرتهم على تجاوز الصعاب، وتخطي الأزمات، والانتصار على ما يتوالى عليهم من محن.

لكن الواقع يشهد- للأسف - أن البعض يتخذ من هذه الآيات وتلك الأحاديث تُكأَةً لتكاسله عن القيام بما يجب عليه، ومبرّرًا لقعوده عما ينبغي عليه فعله.

فإذا حدثتَ أحدهم عما يحيط بعالَم الإسلام من مكائد ومصائب، وعما يحيكه الأعداء من خطط وما يرتكبونه من جرائم، وعما ينزل بمجتمعاتنا من تغريب وتغييب وتشتيت.. انفرجت أساريره عن ابتسامة باهتة، وكأنه يطلب منك عدم الاكتراث بذلك، لأن الإسلام- حسب مقولة هذا البعض، التبسيطية المخلة - غالب زاحف، وأن الله تعالى لن يترك دينه!

إن هذا الفهم العليل لم يدرك حقًّا سنة الله تعالى في خلقه؛ هذه السنة التي أراد بها سبحانه أن يتدافع أهل الحق وأهل الباطل؛ ليتمايز كلا الفريقين، وليبذل كل منهما ما يسعه من بَذْل، وليتبين الصادق في دعواه من الكاذب، والثابت من المهتز..

هذه السنة الإلهية قررتها آيات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: {ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} (محمد: 4).

وقوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (آل عمران: 140).

فقد حدث خلط عند البعض بين ضرورة اليقين بموعود الله، وبصدق إخباره وإنبائه، وبين ضرورة استعدادنا وقيامنا بتحقيق هذا الموعود؛ الذي هو بطبيعته لن يتحقق وحده من تلقاء نفسه؛ وإلا لانتفت الحاجة إلى وجود مؤمنين ينصرون الإسلام وينافحون عنه!

إن وعد الله صادقٌ لا ريب، وآتٍ بلا شك.. لكنه يحتاج إلى رجال يحملونه، ويحققونه، ويسعون إلى إيجاده وتنفيذه..

فلنا يقين في الله لا يُقعدنا عن العمل، ولنا عمل لا يَنفي اليقين

مختصر ومنقول من مقال:

. أ . السنوسي محمد السنوسي